

Ezra F. Vogel

## *Deng Xiaoping and the Transformation of China*

(Cambridge, MA: Belknap Press of Harvard University Press, 2011).  
xxiv, 876 p.

### دينغ والتحوّل الصيني الكبير

محمد بن راشد الجهوري(\*)

اقتصادي، البنك المركزي العُماني.

دولاراً أمريكياً في عام ١٩٧٨ ليصل إلى أكثر من ٦ آلاف دولار في عام ٢٠١٢. وخلال الفترة المذكورة، يقدر أن أكثر من ٢٣٠ مليون صيني انتقلوا من معدلات دخل تصنف على أنها تحت خط الفقر لينضموا إلى الطبقة الوسطى (أي بمتوسط دخل سنوي للفرد لا يقل عن ٩ آلاف دولار).

لم يتردد دينغ في وصف النظام الإداري السائد في الصين آنذاك بأنه متخلف ومترهل وأن مثل هذا النظام من الصعب أن يقدم شيئاً ملموساً لمعالجة المشكلات التي يواجهها الشعب الصيني. موضحاً أن الصين لا يمكنها أن تبرهن على أن النظام الاشتراكي الذي تؤمن به هو الأفضل إذا كانت تحقق معدلات نمو اقتصادية أقل من تلك التي تحققها الدول الرأسمالية. ومن ثم فقد خلص إلى أن نجاح الصين في تحقيق التحديث الاقتصادي

#### - ١ -

يوضح مؤلف كتاب دينغ والتحوّل الصيني الكبير، عزرا فوجل، أستاذ الدراسات الاجتماعية في جامعة هارفارد، أن الغاية من كتابه هي الكشف عن القوى المؤثرة في التطورات الاجتماعية والاقتصادية في الصين من أجل أن يتمكن القارئ من إدراك أبعاد التطورات المذكورة ويكون مستعداً للتعامل مع التحديات التي يفرزها ظهور الصين كقوة مؤثرة على الساحة الدولية. ويتم ذلك من خلال دراسة حياة وأعمال الزعيم دينغ شياو بينغ (١٩٠٤ - ١٩٩٧).

لقد قاد دينغ ما يمكن أن يوصف بأنه أوسع عملية شهدتها التاريخ لخروج البشر من الفقر إلى الطبقة الوسطى. حيث ارتفع متوسط دخل الفرد في الصين من ١٥١

من غير الواقعي أن تفترض أنه يمكنك أن تبني مجتمعاً متقدماً ومسالماً إذا لم تنجح أولاً في أن تؤسس لنظام تعليمي رصين. لذا فقد سعى لإيجاد أولوية مطلقة للإنفاق على إعادة تأهيل نظام التعليم وإحياء أنشطة البحث العلمي، نظراً لأن ثمار إصلاح نظم التعليم لا تنحصر في جزئية توفير فرص عمل ملائمة، بل كونها تشكل دعامة متينة لانتقال المجتمع بأكمله إلى الحداثة والرقى. ووفقاً لهذا الإيمان كان من المنطقي أن تكون غاية القرض الأول الذي حصلت عليه الصين من البنك الدولي في السبعينيات هو توسيع وإصلاح نظام التعليم العام.

لذلك، فقد تم العمل على هيكلة العمل التربوي بشكل كلي مع الاهتمام بتعليم الرياضيات والعلوم واللغات، وتم كذلك انتقاء ذوي المَلَكات والقدرات والمهارات من الشباب الصيني وإخضاعهم لبرامج تعليمية ممنهجة مع تدريب عملي مكثف ومنحهم فرص الاحتكاك بالعالم الخارجي حتى يتمكنوا من المساهمة بفاعلية في التنمية. ومن أجل ضمان تسريع عملية انتقال الصين إلى مصافّ الدول الصناعية شرعت الحكومة في برنامج ابتعاث واسع لمختلف الدول المتقدمة.

#### - ٤ -

إن الاهتمام ببناء الكوادر المتخصصة هي أحد أبرز معالم تجربة الصين الجديدة، وبخاصة عندما تولى رئاسة الوزراء الإصلاحى زهاو زيانغ في الثمانينيات؛ حيث أوجد معاهد لتخطيط السياسات في مختلف أوجه التنمية الاقتصادية والاجتماعية.

مرتبط بوجود بيئة مؤسسية لها أربعة أركان: رسالة سياسية واضحة ومتسقة، واستقرار سياسي، وعمل جاد وروح قيادية، وأن يجمع المسؤولون بين حس المسؤولية المجتمعية والمعرفة العلمية التخصصية.

#### - ٢ -

على المستوى التنفيذي، قامت استراتيجية دينغ في التغيير والإصلاح على عدة عناصر؛ يأتي على رأسها إعطاء أهمية مطلقة للتعليم وبناء قاعدة صلبة للبحث العلمي والتطوير التقني وجذب الاستثمارات الأجنبية المباشرة مع إحداث انفتاح تدريجي على العالم والتعلم من التجارب الناجحة. كان أسلوب إدارته معتمداً بشدة على التجريب والخطوات المحسوبة وفق قواعد مغايرة للأسلوب السوفياتي في الإصلاح القائم على العلاج بالصدمات والتحول المتسارعة التي قادت في النهاية إلى تفكك المعسكر السوفياتي برمته. في المقابل كان دينغ يؤكد دوماً الحكمة الصينية التي تقول «إنك لكي تقطع النهر إلى الضفة الأخرى عليك أن تبث عن أحجار تعتمد عليها في كل خطوة بحيث تساعدك على عبور النهر من دون أن تسقط ويجرفك التيار».

#### - ٣ -

عندما عاد دينغ إلى تولي بعض المسؤوليات السياسية بعد وفاة ماو سنة ١٩٧٦ كانت من أولى مهماته مسؤولية إعادة إحياء التعليم الذي خلخلت «الثورة الثقافية» كيانه بشدة. كان رأي دينغ أنه

نسبة مساهمة المنشآت الأجنبية العاملة في الصين حالياً إلى أكثر من ثلث الإنتاج الصناعي الصيني. كانت هناك عدة عوامل أسهمت في هذا النجاح، أهمها: حدوث نقاش تخصصي عميق ومسبق حول خيارات الصين التنموية ومزاياها النسبية وكيفية تعظيم الاستفادة من كل مشروع استثماري أجنبي، ووجود «محطة واحدة» لكل إجراءات ترخيص الاستثمار، ومحاولة تحصيل قيمة عادلة للضرائب المفروضة على المشروعات الاستثمارية، وإبقاء تكلفة أجور العمال تنافسية مع العمل على رفع إنتاجيتهم من خلال توفير أنظمة تدريب رصينة، ورفع كفاءة أداء الأجهزة الحكومية في المناطق الاقتصادية بحيث تكون قادرة على تلبية متطلبات الشركات الأجنبية.

## - ٦ -

كانت حياة دينغ متقلبة في مباشرته للسلطة؛ ومن الطبيعي أن يختلف الناس في تقييم شخصيته وإنجازاته. يرى البعض أن نقيصة دينغ الكبرى هي أنه ليس إلا مسؤولاً زئبقياً مستعداً لأن يفعل أي شيء ليرضي رؤسائه، حتى لو كان ذلك على حساب بعض الضحايا. حيث إن دينغ شارك في الخلاص من الكثيرين من أصحاب الأراضي بعد وصول الحزب الشيوعي للسلطة، وقد حصل على ثناء علني نادر من ماو على ذلك. ثم إن دينغ لم يفعل أي شيء من أجل الملايين الذين ماتوا جوعاً نتيجة سياسة ماو «القفرة الكبرى إلى الأمام».

ولا ينسى دور دينغ في قمع الاحتجاجات الشبابية في عام ١٩٨٩. إلا أن

وقد زیدت مخصصات البحث العلمي من مبلغ لا يكاد يذكر في السبعينيات لتصل إلى مبلغ يشكل نحو ٢ بالمئة من إجمالي الناتج المحلي الصيني اليوم. وتم العمل على استقطاب أبرز العلماء في العالم للتدريس أو لإجراء بحوث في الصين أو لحضور مختلف الفعاليات العلمية بهدف الاحتكاك مع المختصين في الداخل. وتم الطلب من مختلف رؤساء الشركات والقياديين البارزين في إدارة الأعمال أن يزوروا الصين وأن يقدموا توصياتهم للمسؤولين حول ما تحتاج البلاد إلى فعله لتنشيط جانب معين أو قطاع تنموي محدد.

## - ٥ -

دُشن المشروع التجريبي للمناطق الاقتصادية الخاصة في غوانغ دونغ في نهاية السبعينيات وذلك بقصد مواجهة محاولة آلاف الشباب الهروب إلى هونغ كونغ المحاذية بحثاً عن مستوى دخل أعلى. وبدلاً من إنفاق المال والجهد على منع هؤلاء الراغبين في الفرار من «النعم الاشتراكي»، تم - بعد نقاشات مطولة - إقرار إيجاد مناطق جاذبة للاستثمار الأجنبي بهدف توفير فرص عمل ذات أجور معقولة، والتسريع في عملية انتقال التقنية وأساليب الإدارة الحديثة إلى المؤسسات الصينية.

ومع نجاح التجربة تم تعميمها في الكثير من المناطق الأخرى. كان برهان هذا النجاح أن صادرات الصين قد ارتفعت من عشرة مليارات دولار في عام ١٩٧٨ لتصل إلى أكثر من تريليون دولار في عام ١٩٨٨، أي تضاعفت أكثر من مئة مرة. وتصل

بالفعل سجن وإعدام الكثيرين من المسؤولين الفاسدين واسترجاع ما استحوذوا عليه من المال العام.

يجدر بالذكر أن طبيعة النظام المركزي وضخامة حجم الاقتصاد مع عدد سكان يزيد على مليار و ٣٠٠ مليون مواطن كلها عوامل تسهم في خلق بيئة ذات ميل حدي مرتفع لممارسة الفساد. ولذلك، فإن وتيرة الصراع بين المخلصين الطامحين إلى وجود صين قوية ومستقرة والفاسدين ستظل مستعرة. وبهدف إعادة كسب ثقة المواطنين ازداد سقف الحريات العامة منذ أحداث ١٩٨٩، وبخاصة حرية وسائل الإعلام المحلية في نقد وجوه الفساد في أجهزة الحكومة.

كذلك ارتفع بشكل كبير سقف الشفافية والمعلومات المتاحة حول أداء الأجهزة المذكورة. وبالتالي اتسعت قنوات المساءلة وتدعمت قواعد الحكم الرشيد. إضافة إلى ذلك، ومن أجل ضمان تقليص احتمالية حدوث أخطاء فادحة في الأداء الحكومي، فإن النظام السياسي الصيني انتهج خلال العقدين الأخيرين سياسة حازمة في اختيار القيادات على مختلف المستويات، حيث الكفاءة هي الفيصل في ارتقاء سلم المسؤولين العامة، مع خضوع الكوادر لتدريب منهجي صارم وتقييم جاد ومستمر أثناء الممارسة العملية. وهذه القدرة على اختيار وتأهيل الكفاءات أصبحت سمة تعرف بها الصين اليوم □

آخرين - ومن بينهم مؤلف الكتاب الذي بين أيدينا - يرون أن دينغ كان يسعى لمصلحة طويلة الأجل للصين. وكان يدرك أن البلاد لم تكن مهياًة للوصول إلى تجربة الحكم الديمقراطي على النمط السائد في الغرب. كان دينغ يرى أن الهدف الرئيسي للحكومات يجب أن يتمحور حول وضع السياسات التي تكفل زيادة نسبة المواطنين الذي يحصلون على دخل يضمن لهم مستوى معيشياً جيداً وذلك من خلال إرساء نظام سياسي يقوم على أسس العدالة والاحترافية في الإدارة. ومن ثم، فإن وعي الناس وإدراكها لواجباتها وحقوقها سوف يتيح لها أن تجد الوسائل التي تجعلها تتعلم كيفية إدارة شأنها الخاص والعام بشيء من السعة في اختيار الأفضل والقدرة على تقبل الاختلاف والتعدد.

النقيصة الأخرى التي أخذت على دينغ هي أن قبضته على الفاسدين في النظام كانت ناعمة، وأن مبدأه القائل بأنه «يجب أن ندع بعض المناطق تنعم بالثراء أولاً» قد امتد ليشمل الأفراد كذلك، من دون وضوح للكيفية التي يصل بها هؤلاء الأفراد للثراء، وبخاصة حين يكونون من ضمن أفراد السلطة. ولكن أحداث ميدان تيان آن مين عام ١٩٨٩ دفعت دينغ إلى إعادة النظر في ذلك، حيث إن تذر الشباب من انتشار الفساد في أروقة السلطة كان عاملاً رئيسياً في الاحتجاجات التي سببت حرجاً واسعاً للقيادة ودفعتها إلى مراجعة نظام المراجعة والمحاسبة. وتم